من أسرار الفن

بطلة شارلى

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— تحدثت الصحف كثيراً عن الفلم الذى يخرجه شارلى شابلن الآن ، وعينت موضوعه ، وقالت إنه سيتناول حياة الديكتاتور هتلر ، وزادت بعضها فسردت ملخصاً للفلم . وقد اهتم العالم كله بأنباء هذا الفلم لأنه سيكون الحرب التى يشنها الفن على القوة ... ولكن هذا الاهتمام الكبير لم يتجه منه ولا جانب تافه إلى بطلة هذا الفيلم ... ألست ترى شارلى مقصراً فى الدعاية لبطلته، وأن الذى يدفعه إلى هذا التقصير أنانية فى نفسه؟

— يجب عليك أن تعلمى قبل كل شىء أن شارلى ليس هو المسئول عن هذا، فهو فيما أعتقد أبعد الناس عن الدعاية لأنه أقرب الناس من الفن الصادق . ثم يجب عليك أن تعلمى بعد ذلك أن حياة هتلر خالية من المرأة فيما يرى الناس . فإذا علمت هذا وذاك فإنى أظنك ستعودين وتعتذرين لشارلى عن اتهامك إياه بالأنانية لأنه لم يقم الدنيا ويقعدها من أجل ممثلة تافهة سيمنحها المجد حين يبيح لها أن تقف إلى جانبه ...

— يا سلام ! أو ليست هذه الممثلة التافهة هى التى سيبلغ بها نصف النجاح الذى ينشده ؟ إنه رجل غدار لا وفاء له . وأكثر من هذا أنه يقصر حتى فى أيسر المجاملات

— بل إن شارلى متسامح . ويكفيه تسامحاً أنه لا يزال يسمح للنساء أن يظهرن على يديه ، وأن يرقين إلى المجد على كتفيه، مع أنه بلغ بالمرأة كل الآلام التى تغمره ... إنه رجل غفار ، لا حقد عنده وأكثر من هذا أنه يجامل حتى فى المعارك التى يخوضها فى حياته ...

— أية معارك هذه التى يخوضها شارلى فى حياته ؟

— كل أعماله معارك ، وكل رواياته مواقع . وهو ينتصر فيها جميعاً ، ويأبى دائماً إلا أن تكون إلى جانبه فى كل نصر واحدة من بنات حواء ، ينتشلها من غياهب الخمول انتشالاً ويسمو بها إلى آفاق الذكر سمواً ، ثم يرى نفسه مضطراً بعد ذلك إلى أن يتركها وأن يدعو غيرها ... فله فى كل رواية بطلة . . .

— إن هذا هو ما أعيبه فيه . فقد كان يجب عليه أن تكون له بطلة واحدة يفهمها تمام الفهم ، ويحملها بمقدرته على أن تفهمه تمام الفهم ، ثم لا يتركها ولا تتركه ، فإذا كان قد عجز عن هذا لسبب من الأسباب فلم يكن عليه أقل من أن يعنى باختيار بطلة من المشهود لهن بالنبوغ تقف أمامه فى أفلامه... فهكذا يفعل كل الممثلين الكبار فى كل زمان ومكان ... فلماذا لا يفعله هو إذا لم يكن الحقد يأكل قلبه ، أو إذا لم يكن يخاف أن تكتسحه ممثلة قادرة ؟

— وهل تعتقدين أنت أن الله خلق ممثلة تستطيع أن تكتسح شارلى ؟ أنا لا أظن ذلك

— إذن فلماذا لا يقف أمام ممثلة نابغة ؟ أهو أعظم من جورج آرليس ، ووالاس بيرى ، وبول مونى ، وهارى بور ، وشارلس لاوتون ...

— ما أبعد الفرق بين هؤلاء وبين شارلى... هؤلاء كل منهم يمثل ذاتاً حدثت فى زمن ما وفى مكان ما ، أما هو فيمثل النكرة الذى يعرفه كل زمان وكل مكان

— وهل كان هتلر نكرة حتى يمثله ؟

— إنه على الرغم مما فيه من شر فهتلر معرفة، ولكنه أصاب ذيوع تلك النكرة

— واعتماداً على شهرة هتلر واهتمام العالم بما يثيره فيه فإن شارلى يهمل بطلته ...

— من قال هذا ؟ إنه يهدى إلى العالم فى كل فلم بطلة . . .

— إن هذا الجود وهذا الكرم مرجعهما عجزه عن أن يحتفظ لنفسه بواحدة

— بل هو عجزهن جميعاً عن البقاء إلى جانبه

— معذورات ! فهو عجوز شاخ

— وما هذا عند التى تريد شارلى ! شارلى الذى تحبه الدنيا ولم تشبع منه ولن تشبع . ألا تقبل امرأة واحدة ممن عرفهن أن تحتفظ به ؟ حقاً إن للمرأة ذوقاً لا أدرك كنهه

— لعل شارلى الذى تحبه الدنيا غير شارلى الذى تجده المرأة فى البيت ...

— من غير شك ، وإن شارلى الذى تجده المرأة فى البيت لهو أروع بكثير من شارلى الذى يعرفه العالم . فهو فنان ، وحياته خارج الاستوديو إنما هى تحضير لحياته داخل الاستوديو ، فلو أن شارلى وجد التى تحب هذا التحضير كما تحب الوقوف إلى جانبه أمام الكاميرا لوهب لها حياته ، ولوهب لها ماله ولوهب لها فنه ، ولوهب لها نفسه مختاراً ومجبراً ... ولكن شارلى لم يجد هذه الفنانة بين اللواتى عملن معه ، وبين اللواتى تزوج منهن ، فهو معذور إذا تولى بالتبديل والتغيير بطلاته ، وإذا فر من زوجاته . فبطلاته يتعشقنه فى عمله يردن منه أن يربحن الثروة والمجد ، وزوجاته يتعشقن اسمه وجاهه وغناه ويردن منه بعد ذلك أن يكون خارج عمله لهن هن لا لهذه الدنيا التي يستخلص منها مادة فنه

— أليس هذا حق المرأة على زوجها ... ؟

— قد يكون من حق المرأة على زوجها أن تستخلصه لنفسها إذا لم يكن زوجها فناناً صاحب رسالة . أما إذا كان زوجها مشغولاً حتى عن نفسه بما فى الكون من آيات وبدائع ، وإذا كان يعيش فى هذه الدنيا مباحا لكل من يريد أن يتذوقه وأن يأخذ منه ، فلماذا لا تنكب عليه هى تستوعب كل ما يمكنها أن تستوعبه منه ... ولماذا لا تجد فى فنه المتعة ... لماذا ؟ إلا أن تكون نفسها عاجزة عن تذوق الفن والاستمتاع به ...

— وهل تريد من زوجة الفنان أو من تلميذته أن تقضى معه الحياة متنقلة من ملحوظة إلى ملحوظة، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن أغنية إلى أغنية، ومن قصيدة إلى قصيدة ... ولا يكون لها منه ذلك؟

— وماذا تريد منه غير ذلك ؟

— تريده هو ؟

— وأى شىء فيه هو غير ذلك ؟

— فيه أنه رجل ، وأنها امرأة

— وإنه رجل وإنها امرأة ... أو أنكر أحد ذلك ؟

— إنه هو الذى يتكره ... فهو فيما أظن لا يكاد يقيم علاقته مع صاحبته حتى يحسب أنه قد تم له ما يريد من الاستيلاء عليها ، ثم يمعد بعد ذلك إلى ما يرضيه هو لا ما يرضيها هى ... فهو يكثر معها من الحديث عما يراه فى الدنيا وفى الكون وفى الملكوت ... يحدثها عن النجوم والشموس والصراصير والنمل ، وقد لا يخطر على باله طول السنين أن يذكر جمالها بكلمة ، أو أن يمدح ثوباً من ثيابها أو أن يطرى بعض زينتها ناسياً فى هذا أن المرأة مخلوق لا يطيق الحياة وحده ، وأنها تفزع كل الفزع ما لم تحس التهافت عليها ... إنها يا أخى قد خلقها الله لغيرها ... خلقها للرجل وهى لا تقوم بذاتها

— آمنت بالله ، وبهذا الحق الذى تذكرين وما أقل ما تذكرين من الحق ... ولكن ألا ترين يا سيدتى ويا تاج رأسى أن الرجل إذا تزوج من امرأة كان هذا منه كافياً يشهد بأنه معجب بها وبذوقها وبجمالها وبملابسها وبزينتها ... ثم ألا ترين أنه إذا اختار تلميذة له فوجه إليها اهتمامه وجهوده كان هذا منه كافياً أيضاً يشهد بأنه راض عنها وعن كيانها بما فيه عقلها وجسمها وعلى الخصوص إذا كانت هذه التلميذة ممثلة ممن يلقن أن يكن بطلات فى أفلام شارلى ... إنى أعتقد أن هذه الشهادة تكفى ، وأنه لا داعى بعد ذلك يدعو شارلى أو غيره من الرجال إذا استيقظ من النوم فى الصباح أن يقول لامرأته : ما أبهاك وما أروعك ؛ وإذا عاد إليها فى المساء أن يقول لها : ما أحلاك وما أجلك ؛ وإذا صحبها فى عمل أو فى لهو أن يقول لها : ما أذكاك وما أبدعك ... ألا ترين أن هذا لا يمكن أن يكون إلا خداعا لا طعم له . . . إننى أرى فى الصمت والهدوء علامة من علامات الرضى ، وأحسب أن شارلى كذلك ، فهو ما دام صامتاً وهادئاً مع زوجه أو تلميذته كان معنى هذا أنه راض عنها ، وأظن أنه إذا رأى فيها عوجاً لفتها إليه ... وهكذا يجب أن تكون حياة الناس ... أساسها التسليم والرضا الصامتان لا تبادل الإطراء والمخادعة ...

— إنك تقول هذا لأنك خائب مثلما أن شارلى خائب فأنا منذ زمانى الدهر فى طريقك لم أسمع منك كلمة واحدة ترضينى ولم أجد عندك إلا الكلام الذى يسمم البدن ويكسر النفس ... تذكر شارلى ، وتذكر مواقعه الغرامية فى أفلامه ، وقل لى بالله عليك هل رأيته يوماً عاشقاً لبقاً ...

— إذا كانت اللباقة هى صناعة الغرام ، فشارلى عاشق غير لبق . أما إذا كانت اللباقة هى الغرام الصادق ، فاذكريه يا جاحدة فى « أنوار المدينة » كيف عشق العمياء وكيف أخلص لها وكيف كان يضحك الناس من غرامه هذا والدموع يسيلها من مآقيهم تأثراً له وتفجعاً ، ثم اذكريه فى « العصر الحديث » كيف أحب الشردة الصغيرة ، وكيف كان يحنو على إخوتها ويطعمها وإياهم طعامه هو . وإذا استطعت فاذكريه فى « البحث عن الذهب » كيف زين مسكنه لحبيبته ، وكيف جلس ينتظرها والطعام أمامه لا يذوقه ولا يمسه ، وكيف تخلفت عنه وهو ما زال ينتظرها إلى

أن غفا ، فكان الحب أحلامه ، وكانت هي عروسها . . فلما أفاق وأدرك أنها تخلفت ، جن حزناً وطاشت أحلامه ، ولكنها ظلت عروس أحلامه الطائشة ... إن شارلى من غير شك هو أروع وأخلد عشاق السينما ، يقدره حق قدره الذين أحرق الحب قلوبهم وأفنى أفئدتهم ، ولكنكن يعجبكن أدولف مانجو المتأنق السمج وكلارك جيبل المقحل المباهى بقوته ... أنتن لا يرضيكن إلا المنازلون ... أما العشاق ، فلهن منكن الزراية والسخرية ... إن شارلى صادق كل الصدق يا هذه ، وإن حياته الفنية لهى صورة حقة من حياته الطبيعية ...

— وهذا هو ما أريد أن أقول ... فكما أنه فى حياته الفنية لا وفاء فيه لممثلة زميلة فإنه فى حياته الطبيعية لا وفاء فيه لامرأة

— قلت لك إنه لا يخلص فى زمالة امرأة لأنه لم يجد المرأة التى تخلص فى زمالته ، وهو لا يزال يرتجل بطلات لأفلامه لأنه لا يزال يبحث عن سكنه بين النساء، ولعلك تذكرين أنه جن يوماً فأخرج فلم « الغلام » من غير بطلة امرأة وزامل فيه جاكى كوجان ، وقد كان ذلك لأنه جن يوماً فطاش فى الحياة لا يقف عند امرأة ولا يرتاح إلى أنثى . ولعلك ترين أنه قد عدل أخيراً عن الممثلات الناضجات الأنوثة ذوات التجارب فى الرجال إلى ممثلات أخريات صغيرات لم يعرفن الرجال لا الممثلين منهم ولا غير الممثلين ، وقد حدث ذلك لأنه فى حياته عدل عن تقصى الحب بين النساء ذوات التجارب إلى تقصيه بين الفتيات الساذجات

— وإلى أين سينتهى شارلى فى بحثه هذا يا ترى ؟

— أغلب الظن أنه إذا لم يسعفه القدر سريعاً بما يصبو اليه من الحب ، فإنه ربما عدل عنه ، وعندئذ سنرى شارلى فى أفلام لا نساء فيها . .

— وهل يمكن أن يظهر فلم من غير نساء ؟ إنه لن يكون غير خرافة، فالدنيا ليست الدنيا مما لم تزينها المرأة...

— هذا هو كلامكن ، وكلام الذين يضحكون على عقولكن. وإلا فقولى لى من هى المرأة التى كانت فى حياة كافور الإخشيدى

— أو لم تجد غير هذا الأغا مثلاً ...

— وهل أبرع وأبرز من مثل هذا العبد يشتريه سادته بالمال فإذا هو الملك الحاكم ؟

— إن شارلى نفسه مقتنع بأنه لا بد لفلمه من بطلة ، وأنا أؤكد لك أن بوليت جودار التى أظهرها فى فلمه الأخير « العصر الحديث » سوف تظهر إلى جانبه فى الديكتاتور

— ومن أين جاءك هذا ؟

— رونه صحف أمريكا . بعد أن قيل إن بوليت غادرته ...

— إذن فلن يكون شارلى أنانيا كما قلت فى البدء

— إنه أنانى وأنانى وأنا لا زلت أشك فى إخلاصه لتلميذته الصغيرة

— أما هو فنثق أنه مخلص كل الإخلاص ، وهو لا ريب يرجو السماء والأرض أن تحفظ عليه بوليت ، ولكن الشىء الذى أخشاه ، والذى قد يخشاه هو أيضاً هو أن تكون بوليت هذه على الرغم مما يبدو عليها من ملامح الطهر والبراءة ... امرأة صغيرة قد تنكرت بالطهر والبراءة وركبت بهما ظهر شارلى حتى استطاعت أن تظهر معه فى فلمين متتابعين ، وهذا من غير شك يعتبر حادثة فى تاريخ ذلك الفنان العظيم ... وبعدئذ ... من يدرى إذا ذاع اسم بوليت ، واعتبرها الناس نجمة مستقلة لا تحتاج إلى شارلى ولا إلى اسمه فى تجارة الفن ، وآمن بهذا المخرجون وأصحاب رؤوس الأموال ... أتظل على وفائها له فتبقى معه ... أم تفر منه كما فرت الأخريات ... من يدرى ... إنها على أى حال تجربة شارلى الأخيرة فيما أعتقد ...

عزيز أحمد فهمى

صدر كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والفن والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات

وهو يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وثمنه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة